آثار العدوان على بنائنا الثقافي

بقلم غالي شكري

اذا كان هذا الشعار هو التعبير الثوري عن الوضع الراهن في حياتنا السياسية والعسكرية ، فانه ايضا التعبير الامثل عن الموقف الحالي في حياتنا الثقافية والفكرية .. ولعل « النكسة » في حياتنا الثقافية اسبق في معيار الزمن من نكستنا العسكرية ، فلقد كان العدوان الثقافي على فكرنا القومي سابقا على العدوان المسلح . وانني اشعر وانا اكتب هذا الفصل بعد ان سمعت بقرار فرض الحراسة على الجامعة الاميركية في القاهرة بأن الكلمات السابقة على هذا الفصل والتي كتبتها قبل العدوان الثلاثي الاخير ما تزال تحمل رائحة المأساة والنذير بما يوشك ان يقع في حياتنا الفكرية اذا مضت منا الامور كما هي عليه الان ..

فلا يكفي مطلقا ان نفرض الحراسة على فرانكلين او الجامعة الاميركية .. او ان نحولهما الى مؤسسات وطنية .. هذا واجب قومي عاجل لا شك فيه .. ولكن الوقوف عند اعتاب هذا الواجب والتفني به يصل بنا في المدى القريب الى « التنازل » عن الكثير من التزاماتنا امام الشعب الذي اولانا ثقته ، بل اننا نجازف في هذه الحال « بالمساومة » على شرفنا القومي نفسه . فنحن اذا تصورنا للحظة واحدة ان المعركة انتهت بيننا وبين الفكر الاستعماري ، بتجميد فرانكلين او بتعريب الجامعة الاميركية .. فاننا يجب ان نسلم مع هذا التصور باننا نحن الذين انتهينا وليست المعركة ، نحن الذين تعبنا من مشقة الطريق ووعورته .. الطريق الطويل الى خلق ثقافة وطنية تقدمية تحمي مكاسب الاستقلال الوطني للانسان العربي وتسهم معه خطوة خطوة في تصفية الاستغلال والظلم ، وبناء المجتمع العادل المطمئن ..

لنبدأ اذن هذه المهمة العاجلة التي تقول بتصفية آثار العدوان . والعدوان الذي اقصده هنا هو العدوان الثقافي الذي مارسته الامبريالية والاستعمار الجديد خلال السنوات الماضية . وهو أيضا العدوان الثلاثي الاخير الذي سينعكس بغير شك فيما سينتجه مثقفونا من فكر خلال السنوات القادمة . وانني لاضع في اعتباري وأنا أسوق هذا الحديث عن المنطقة العربية كلها ، ان الثقافة فكرا ، وانتاجا ، واستهلاكا ، تختلف من جزء الى اخر من أجزاء هذه المنطقة ، وان اتحدت جميعها ، في هدف واحد هو مناضلة الاستعمار .. فأقطار مثل مصر والجزائر وسوريا والعراق تختلف مؤسساتها الثقافية عن أقطار أخرى مثل لبنان والمغرب وتونس ، وهذه كلها تغاير تماما الاوضاع السائدة في السعودية والكويت والاردن حيث تكاد هذه الاقطار أن تخلو من مؤسسات ثقافية يعتد بها . هناك اذن تصفية شاملة لآثار العدوان الثقافي الاستعماري على الصعيد القومي ، وتصفية اخرى محلية تتناسب مع الظروف الذاتية لكل قطر عربي على حدة ..

أما التصفية الشاملة على صعيد الوطن العربي فأوجزها فيما يلي من نقاط :

- ١ -

اذا لم يكن ثمة مكاسب في الجولة الاخيرة مع اسرائيل سوى انه قد اصبح في مرتبة اليقين ان « اميركا » هي العدو الحقيقي والرئيسي للعرب ، فانه ينبغي الحرص على هذا الكسب حرصا « ثقافيا » عميقا .. أي انه يتعين على مؤسسات الثقافة العربية في مختلف اشكالها ومستوياتها ان تغتنم هذه الفرصة النادرة في تاريخنا الفكري والسياسي حيث تتفق السلطات السياسية في العالم العربي كله على ان الولايات المتحدة الاميركية هي قلعة الامبريالية والاستعمار الجديد ، وانها قائدة الثورة المضادة في العالم .. وبالتالي لم تعد أمام مؤسسات الثقافة العربية سواء منها ما يخضع لملكيات فردية او ما يخضع منها لاشراف الدولة وتوجيهه أية حواجز أو عقبات « قهرية » تحول دون التعبير الثوري الناضج عن هذه الحقيقة المؤكدة ، وهي ان « الاستعمار الاميركي » هو الهدف الاستراتيجي لنضال الشعوب المضطهدة ، وان اسرائيل هي احدى الثكنات العسكرية الاميركية المتراميه على طول الارض وعرضها. أي ان المهمة العاجلة أمام الاجهزة الثقافية في بلادنا العربية والطاقات البشرية المثقفة هي تقديم « اميركا ـ الاستعمار » الى الشعوب العربية تقديما واضحا ومفصلا ، هذا يستوجب تغيير الصورة الرومانسية الحالمة التي استقرت في الذهن العربي منذ عشرات السنين عن « الجنة الاميركية » ، بأن تستبدل بالصورة الحقيقية الموضوعية « لوجهها القبيح » .. وربما كانت سلسلة التحقيقات التي قدمتها جريدة « الجمهورية » باشراف الدكتور محمد انيس ، وسلسلة المقالات التي قدمتها جريدة « الاهرام » لمحمد حسنين هيكل ، وكتاب « الحكومة الخفية » الذي نشرته دار المعارف ، والعدد الخاص الذي أصدرته مجلة « الكاتب » في يونيو سنة ١٩٦٧ ... ربما كانت هذه النماذج هي المبادرات الاولى في هذا الصدد . فلم يعد كافيا ان نكيل السباب لاميركا ، بل لا بد من تجاوز هذه الخطوة الى ما هو اكثر جدية وعمقا . لا بد من تناول اميركا من الداخل تناولا تفصيليا دقيقا ، ثم تناول تطورها التاريخي حتى نتعرف على الجذور الموضوعية لطبيعتها الحالية ، ثم تناول علاقاتها بالعالم الخارجي ، بحليفاتها في الغرب وغرمائها في الشرق ، وأعدائها الجدد في بلدان العالم الثالث ، ثم تناول دورها تاريخيا في المنطقة العربية وهو الدور الذي أدى عبر عشرات التعرجات المتشابكة المعقدة الى ان تشن علينا حربا عسكرية مسلحة تسترت خلف نجمة اسرائيل ..

اميركا الاستعمارية هي القضية الرئيسية التي يتعين على الوطن العربي مواجهتها بشجاعة وموضوعية في المستوى الثقافي بنفس المقدار الذي تنم به هذه المواجهة الان في المستوى السياسي . ان قطاعا عريضا من شعبنا قد فوجيء بهذه الحقيقة الجديدة تدخل حياته مؤخرا ، حقيقة ان اميركا هي الاستعمار الجديد ، هي الامبراطورية العالمية التي تحاول حفنة من الاحتكاريين فرض سيطرتها على مقدرات شعوب الارض قاطبة . فبالرغم من نضال الكثيرين من كتاب الاجيال المعاصرة ودور النشر الغربية في تجسيد « الخطر الاميركي » فان ظروفا عديدة حالت دون ان يثمر هذا النضال اثمارا حقيقيا فعالا . من هذه الظروف ان اجزاء لا يستهان بها من الامة العربية على الصعيد الرسمي قد ارتبطت مصالحها بالولايات المتحدة أمدا طويلا من الزمن .. من هذه الظروف ايضا ان المناضلين ضد الاستعمار الاميركي من المثقفين ودور النشر قد لاقوا من العنت والاضطهاد ما أضعف من امكانياتهم وحصر نفوذها في أضيق الحدود. من هذه الظروف كذلك ان اميركا لم تسفر عن وجهها كقيادة للاستعمار العالمي الا في وقت متأخر نسبيا . وهناك ظروف اخرى كثيرة حالت

دون وضوح هذه « الحقيقة » التي فاجأت قطاعات واسعة من شعوبنا حتى بدت وكأنها « حقيقة جديدة » بينما توغل فظائع الولايات المتحدة الى القرن الماضي . ولعل تاريخها مع اميركا اللاتينية والمكسيك ما يزال ماثلا في مخيلة شعوب أخرى عانت وتعاني من ويلات الاستعمار الاميركي في مختلف مراحل تطوره . شعبنا العربي ، وهو يستقبل ما يمكن ان نسميه مجازا بالحقيقة الجديدة في حياته ، بأمس الحاجة الى معرفة أبعاد هذه « الامبراطورية » القائدة للثورة المضادة في العالم .

ان الاجراءات الادارية والسياسية التي اتخذتها وقد تتخذها بعض الدول العربية ازاء مؤسسات الثقافة الاميركية ليست الا «مظهرا» خارجيا لما ينبغي على المثقفين أنفسهم أن يتخذوه من اجراءات . ولعله من ابشع النتائج ان نستطرد في الاجراءات « المظهرية » دون أن نبدأ بالجوهر . فقد علمت مثلا ان هناك قرارا بمنع دخول الافلام الاميركية والانكليزية الى الجمهورية العربية المتحدة . وربما كانت هناك « حكمة اقتصادية » وراء هذا القرار ، ولكن الحكمة الثقافية تظل أبعد ما تكون عن فعالية هذا الاجراء ، فقد كان من المفيد مثلا أن يمنع القرار دخول الافلام والمجلات والكتب الاستعمارية أيا كانت جنسيتها اميركية او انكليزية او المانية غربية لنضرب عصفورين بحجر واحد .. نمنع الفيلم او الكتاب الاستعماري بسبب مضمونه الاستعماري لا بسبب جنسيته الاميركية أو الانكليزية ، فلا شك ان هناك افلاما ومجلات وكتبا تحمل أغلفتها أسماء وجنسيات اخرى وتحمل في نفس الوقت مضمونا عدائيا لكافة القيم البنائية لتقدمنا الاجتماعي . وعلى العكس من ذلك هناك افلام ومجلات وكتب تحمل الجنسية الاميركية والانكليزية وتحمل في نفس الوقت مضمونا تقدميا ثوريا ... فكيف نصدر قرارا يبلغ هذه الدرجة من الاطلاق والتعميم التي تمنع بلا حدود وتمنح بلا حدود ؟ ليس هناك من جواب سوى التسرع ومعالجة المظهر الخارجي وفقدان الرؤية الواضحة للهدف. فنحن لسنا ضد « كل ما هو اميركي » او « كل ما هو انكليزي » والا سقطنا في هاوية العنصرية العمياء .. اننا بصراحة ووضوح « ضد الاستعمار الاميركي » ونحن ايضا مع كل ثقافة معادية للاستعمار بالرغم من انه في الامكان ان تكون هذه الثقافة اميركية او انكليزية . علينا ان نحذر الوقوع في « رد الفعل » بدافع من تقصيرنا السابق، او بدافع « عقدة الذنب » عند فريق من مثقفينا الذين اسهموا بصورة أو باخرى في تدعيم مؤسسات الفكر الاستعماري في المنطقة العربية .

لا يتطلب الامر من هذا الفريق الذي تعاون مع مؤسسات الثقافة الاستعمارية الا ان يتنحى عن أية مواقع قائدة لثقافتنا القومية ، اذ علينا ان نتصارح بأصالة وان نتكاشف بصدق ، وحينئذ نقول ان أولئك الذين تعاونوا وأسهموا وشاركوا بأية صورة من الصور في خدمة ثقافة الاستعمار لن يستطيعوا المضي في هذه المهمة العاجلة « تصفية اثار العدوان » .. ان تنحيهم وحده هو الموقف الامين الذي ييسر للمناضلين القيام بمهمتهم العاجلة . ولم يعد خافيا ان الارتباط الكامل بين هذا الفريق وأجهزة الاستعمار الثقافية كان يشكل « ظاهرة واضحة » في عدائها للثقافة الوطنية والتقدمية كما كان يشكل « شبكة من المصالح المتبادلة » بين اطراف الغنيمة .. فلو اننا أعددنا كشفا بأسماء الذين تعاملوا مع فرانكلين والجامعة الاميركية ودور النشر المرتبطة بمكاتب الاستعلامات الاميركية .. سوف نجدها مجموعة محددة تحديدا دقيقا وكأنهم شركة مساهمة او جمعية للمنتفعين .. بل ان بعضهم ممن كان يعمل في جهات حكومية او رسمية بادر بتسخير الجزء الذي يشرف عليه للاهداف التي يعمل لتحقيقها في المؤسسات الاستعمارية ، كما انه بادر بتجنيد الطاقات الخادمة معه في الدوائر الاجنبية المعادية ، جندها معه في هذا الجزء او ذاك الذي يشرف عليه في جهة حكومية او ادارة رسمية .

وطوال فترة زمنية غير قصيرة ظلت المطبوعات الصادرة عن فرانكلين او الجامعة الاميركية او مكتب الاستعلامات الاميركي ، ترادف المطبوعات الصادرة عن دور النشر الحكومية كما جاء في بيان وزير ثقافة الجمهورية العربية بمؤتمر الكتاب العربي ، ومعنى ذلك ان الكوادر التي نمت بين احضان الاستعمار هي نفسها الكوادر التي ناضلت بأموال الشعب العربي ضد أهداف هذا الشعب . فلا أقل من أن تتنحى هذه الوجوه التي لا تتهمها بالعمالة ، ولا نطالبها بنقد ذاتي مفصل ، ولا نطلب اليها أن ترد الاموال التي نهبتها الى خزينة الشعب .. اننا نطلب اليها فحسب أن تخلي الطريق امام المناضلين الحقيقيين ، أن تفسح لهم مجال العمل الجاد من اجل تصفية اثار العدوان الذي أسهمت في التمهيد له . انها بذلك تكون قد أدت واجبا قوميا يغفر لها بعض خطاياها . اما « التأقلم » مع الظروف الجديدة و « التكيف » مع المناخ الجديد .. فلن نجني منه سوى المزيد من الشعارات والضلال والخديعة . وهكذا تتحول هذه الكوادر القديمة في عدائها الى أدوات تعوق مسارنا الثوري ، أي الى طابور خامس ما أحوج حياتنا الان الى التخلص من بقاياه ... فالعدوان قائم ، والمعركة مستمرة ..

في مقابل ذلك لا سبيل امامنا لحظة واحدة ـ مثقفين وساطات ـ الا أن نجند قواتنا الفكرية المناضلة كلها ، ان نشحذ اسلحتنا الثقافية جميعها .. فمهما كانت هناك بلدان عربية ليس للدولة فيها دور مباشر في توجيه الثقافة ، فان مسؤولية الضمير العربي تتجاوز الاشكال الرسمية الى أعماق كل فرد في هذه الامة بحيث أن الناشر الخاص والمثقف اللذين لا يخضعان لتوجيه دولتهما انما تصدر مسؤولية كل منهما ، من داخله وشعوره بما يحدق به وبأمته من خطر « الامبراطورية الاميركية » .. هناك اذن طاقات ناضلت الثقافة الاستعمارية طويلا ، بالمجهود الفردي تارة ، والمجهود الجماعي تارة أخرى ، بالمجهود الرسمي تارة ، والمجهود الذاتي تارة أخرى .. لا بد من حركة تجميع لهذه الجهود التي حصلت خلال نضالها على خبرات وتجارب نحن الان في أشد الاحتياج الى التسلح بها ..

وأخيرا فهناك « عقلية اميركية » روجت لها هذه الاجهزة الاستعمارية طويلا خلال السنوات التي قضتها تمرح بين ظهرانينا بلا حساب . هذه العقلية التي تسود بعض المناهج التربوية في الجامعات ومعاهد التعليم كما تسود بعض برامج التدريب الاداري .. وتسود ايضا بعض جوانب من النشاط الصحفي والاعلاني ، بل وتكاد تسود كذلك كثيرا من تفاصيل حياتنا اليومية . هذه العقلية الاميركية التي بثتها في مختلف نواحي وزوايا بنائها الثقافي مؤسسات الفكر الاستعماري ، علينا ان نخطط للخلاص منها فورا . فالرواسب الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تركتها هذه « العقلية » في حياتنا اشبه ما تكون بطابور خامس غير مرئي يقوم بواجبه في حماس العادة الراسخة والروتيني الصاعد . وهو اخطر من الطابور البشري الذي يمكن التخلص منه بمجرد معرفة جنوده ، أي ان العقلية الاميركية هي السلاح غير المكشوف في ايدي العدو .. وهكذا فقد نجح العدو بغير شك في ان يترك الى جانب الكادر البشري ثمار غرسه الفكري في صورة « بناء عقلي اميركي » ، نما داخلنا يوما بعد يوم دون ان ندرك هول هذه الترسانة غير المسلحة الا مع قصف طائرات العدو الاسرائيلي وهي تعلن ان « اميركا » قد نفد صبرها ، ولم يعد امامها سوى العدوان المسلح المباشر . لقد نجحت مخابراتها في تدمير الكثير من النظم الثورية في العالم الثالث ، وبقيت المنطقة العربية بالرغم من كل ما تموج به من تناقضات منطقة منيعة على انقلابات « الوكالة » المركزية .. فلا مانع من تجربة العدوان المسلح تحت راية اسرائيل ، بعد ان مهدت لها تجربة العدوان الثقافي والفكري تحت رايات مختلفة تنتصب حينا باسم فرانكلين وحينا باسم الجامعة الاميركية ، وحينا باسم السينما او المسرح او الفنون

الجميلة الاخرى . هذه كلها التي شكلت ما ادعوه بالعقلية الاميركية التي ينبغي ازالتها من الوجود الفكري العربي جنبا الى جنب تصفية العدوان المسلح في الارض العربية .

— ٢ —

النقطة الثانية بعد اكتشاف « اميركا الاستعمارية » على الصعيد العربي كواحد من المكاسب التي حصلت عليها هذه الامة من الجولة العسكرية الخاسرة هو ان التجسيد الحقيقي لوحدة المصير العربي لم يعرفه المواطن العربي في تاريخه كله كما عرفه خلال هذه الايام . ولا أقصد بذلك « الشكل الوحدوي » الذي اتخذته اجراءات الحكومات والجيوش العربية أثناء المحنة ، وانما أقصد « مضمون الوحدة » الذي تجلى في دماء رجل لشارع وهي تغلي في القاهرة وعمان وبغداد ودمشق والجزائر وفي جدة والخرطوم وتونس وفي بيروت والدار البيضاء وصنعاء وفي كل مدينة وقرية وحي وشارع وزقاق عربي . انني هنا أقولها صريحة الى أبعد الحدد ، وهي انه اذا كان عدوان ١٩٥٦ قد جعل الشعوب العربية تحس انها ليست بمعزل عما يحدث في مصر ، فان عدوان ١٩٦٧ جعل الشعب المصري يحس بأنه ليس بمعزل عما يحدث في مختلف أرجاء الارض العربية . ولست مبالغا اذا قلت ان الشعور بوحدة الوطن العربي فكرا ومصيرا وحضارة لم يصل قط فيما مضى الى ما وصل اليه هذه الايام من حدة وواقعية في وقت واحد . لا ريب ان هذا الشعور كان موجودا في الماضي ، ولكن شوائب كثيرة كانت تعلق به فتحول دونه والتطور والازدهار . شوائب ليست الرومانسية الا عنصرا من عناصرها ، كانت هناك العنصرية جنبا الى جنب مع الرومانسية . وكانت هناك المطامع الطبقية احيانا اخرى تقف في صف واحد مع العنصرية التي قد تصل الى حدود الفاشية والنازية. ان ما حدث عام ١٩٦٧ وأعده كسبا حقيقيا بين انقاض الجولة الدامية الخاسرة ، وأدرك الى ما غير حد بشاعة النكسة التي نجتازها، هو ان « الامة العربية » قد ولدت في اعماق المواطن العربي ميلادا جديدا متطهرا من شوائب الماضي المعقد . ولدت « الامة العربية » كيانا وضميرا جديدا خالصا من أدران التعصب والجهل والطائفية والمطامع . ولدت « الامة العربية » وطنا كريما لا فضل فيه لمواطن على آخر الا بمقدار ما يقدمه من تضحيات ..

هذا الكسب ليس كسبا معنويا صرفا .. فقد تحولت « وحدة المصير » كما قلت عن كونها شعارا حماسيا أقرب الى الشعر الى حقيقة موضوعية تمثلها كل مواطن تمثيلا تفصيليا واعيا . وهذه « الوحدة المصيرية » هي الهدف الثاني — على الصعيد القومي — بعد « حقيقة اميركا الاستعمارية » وهو الهدف الذي يستوجب منا كل يقظة واهتمام ، بل يستوجب اذا شئنا الدقة القيام بثورة جديدة على كافة مفاهيمنا السابقة على العدوان حول هذه القضية الخطيرة . فكم من مفاهيم عنصرية للقومية العربية سادت على فكرنا الحديث خلال السنوات الماضية وباعدت بالقول والفعل بين القومية العربية وفريق هام من خيرة مفكرينا في مصر وغيرها من أجزاء الوطن العربي ، وكم من خيالات رومانسية عن العربية ازدحمت بها افلام توجت بالحماس الصادق ولكنها ضلت الطريق العلمي الموضوعي الواقعي الى العربية الصادقة .. الى غير ذلك من الحواجز التي انتصبت جدرانا عالية بين فريق لا يستهان به من المثقفين والمواطنين الشرفاء ، والحقيقة الثورية الكامنة في الوطن العربي الكبير . ان اكتشاف « الامة العربية » عند قطاعات واسعة من جماهيرنا خلال المحنة الاخيرة يعادل تماما « اكتشاف اميركا الامبراطورية » عند قطاعات اخرى كانت تجهل او لا تعي هذه «الحقيقة» .. ومن ثم يتعين علينا في المستوى القومي ان نقوم بعدة واجبات عاجلة واخرى بعيدة المدى ، من شأنها تقديم هذه الحقيقة من جديد تقديما يتصف بكل صفات الميلاد الجديد للامة العربية .

ولعل من أولى المهام العاجلة « اعادة تقييم » المفاهيم السائدة للقومية العربية على ضوء الانتفاضة التاريخية التي لم يبطىء من تعاظمها مرارة النكسة . ولا نهدف من اعادة التقييم ان نتعصب المشانق لمن أخطأوا .. وانما نقصد معاناة التخلص من كل ما هو سلبي وعقيم في مفاهيمنا السابقة . ونقصد ايضا الى اقرار الاضافة الحية الخلاقة التي فازت بها الفكرة العربية في أتون النكسة . ونقصد أخيرا أن نتخلق المفاهيم الجديدة في وعينا تخلقا ذاتيا وموضوعيا في آن .

ومن المهام العاجلة ايضا « اعادة الثقة » الى جميع الاطراف في الامة العربية الواحدة . اعادة الثقة الى من أخطأ في حق هذه الامة لترسيخه لمفاهيم وتصورات خاطئة عنها . ودرس النكسة الاول في هذا الصدد ان « الممارسة » وحدها هي القادرة على تصويب «النظرية» مهما غلت في طيشها . واعادة الثقة الى من كان بمعزل عن هذه الحقيقة او غائبا عن الوعي بها . ودرس النكسة الثاني في هذا الصدد ان أزمات الامم الحادة هي أكبر مثير للوعي الغائب وأقوى المعاول في تحطيم العزلة ، واعادة الثقة الى كل من كان يرى الامور من زاوية صحيحة سليمة واضحة ، ثم خاب أمله في خضم المحنة وشارفت أحلامه حافة اليأس . ودرس النكسة الثالث في هذا الصدد ان المحن تزيد الرؤية الواضحة وضوحا وان اليأس من القيمة الصحيحة خليق بأن يردي المرء في هاوية الانتحار العقلي .

ومن المهام العاجلة كذلك « اعادة الحياة » الى الايجابيات العميقة الدلالة في حياة هذه الامة وتاريخها وحضارتها وتراثها . فلقد كان من خيوط المؤامرة على وحدة هذه الامة ما أشاعته من بلبلة وفرقة وانحرافات لا نهاية لها في فهم التاريخ او الحضارة والتراث .. فمن قائل ان تاريخنا يبدأ مع الفتح الاسلامي فيقدم مفهوما اسلاميا لنشأة وتطور الامة العربية . ومن قائل ان قوميتنا بزغت مع وحدة النضال ضد الاستعمار الفرنسي والانكليزي في أواخر القرن الماضي. ومن قائل ان وحدتنا تقوم على أساس العرق الواحد منذ أيام الفراعنة والهجرات العربية الوافدة من الجنوب والشرق والغرب . ومن قائل ان عروبتنا هي اللغة الواحدة التي جمعتنا من المحيط الى الخليج . ومن قائل بان العامل الجغرافي هو ابرز العوامل في وحدتنا القومية . الى غير ذلك من تحريفات لا حصر لها لمعنى الامة العربية .. وقد اختص كل تعريف بطبيعة الحال بمفهوم محدد لمعنى التراث والتاريخ والحضارة .. لهذا السبب تحكمت في علاقاتنا « الروحية » بالامة العربية الاهواء الذاتية المتعارضة ، وأميال السياسية المتباينة ، وغابت تماما « الحقيقة الموضوعية » التي يرجع الفضل — بكل اسف — للازمة الاخيرة في انبثاقها . من هنا ضاعت علينا عبر سنوات طويلة تلك الجوانب الايجابية المشرفة في حياة هذه الامة . وهي الجوانب التي تتجاوز كل ما هو عرضي وطارىء لتتصل بأعمق ما فينا من جوهري وأصيل وباق . وهي ايضا الجوانب التي تجمع ولا تفرق ، توحد ولا تفتت . فاذا جاءنا من يقترح ترجمة « كتاب الموتى » ليس من حقنا ان نتهمه بالزيغ الشعوبي أو الانحراف الفرعوني ، ومن جاءنا يقترح بعث تراث الغزالي ليس من حقنا أن نتهمه بالرجعية او الجمود، ومن جاءنا بدراسة عن الخوارج أو المعتزلة او القرامطة ليس من حقنا ان نتهمه بالالحاد والزندقة واحيانا بالشيوعية . ليس من حقنا ان نتقول بشيء من هذه الاتهامات لان كتاب الموتى وحضارة سومر وتراث الفينيقيين وجميع الحركات الفكرية في المسيحية والاسلام بهذه المنطقة .. جميعها تشكل « تراث » هذه الامة و « حضارة » هذه الامة و « تاريخ » هذه الامة .

ان ابشع معالم العدوان الثقافي على أمتنا انه شجع الاتجاهات المعادية للقومية العربية على أساس اقليمي باسم الحضارة المستقلة

والتراث الخاص ، كما شجع في نفس الوقت الاتجاهات الناطقة بلسان القومية العربية على أساس عرقي يؤدي سياسيا الى نماذج متهرئة للفاشية والنازية . لهذا السبب كان من ألزم واجباتنا العاجلة التي تمليها النكسة املاء عميقا ، أن نقصي عن الحلبة الفكرية كلا الانجاهين المتطرفين اللذين يلتقيان ـ ولا مجال للعجب ـ في بؤرة واحدة هي العنصرية : أخطر الشباك التي ينصبها الاستعمار الجديد والصهيونية العالمية . ولنتجه مباشرة الى هذا المفهوم الايجابي البناء الذي يرى هذه الامة في اطار « وحدة المصير » جنبا الى جنب الخصائص النوعية التي يتسم بها كل قطر عربي من خلال ذاتيته المشروعة .

ـ ٣ ـ

يلي هاتين النقطتين مباشرة ما أسميه « بالوحدة الثقافية » في العالم العربي . وهنا قد يقاطعني ألف لسان ولسان في قول واحد : يا سيدي ، اما الوحدة الثقافية فهي الوحدة الوحيدة المتحققة بالفعل ، اكثر من الوحدة الاقتصادية او السياسية الخارجية او القانونية .. الى غير ذلك من « اشكال وحدوية » يموج بها العالم العربي تحت عناوين مختلفة : « اتحاد العمال العرب » ، « اتحاد المحامين العرب » ، « اتحاد الصحفيين العرب » . الوحدة الثقافية تراها بوضوح على أغلفة المجلات الادبية حيث تلتقي الافلام المصرية باللبنانية بالعراقية بالسودانية . تراها بوضوح في مؤتمرات الادباء العرب . تراها بوضوح في انتشار المعلمين المصريين بالمدارس العربية : اما زلت ترغب في وحدة ثقافية عربية هي متحققة بالفعل ؟ وأسمح لنفسي آن أقول : نعم .. أرغب في وحدة ثقافية أعتقد ـ وأرجو أن أكون مخطئا ـ انها ليست متحققة الى الان ، حقا ، لدينا ثقافات ناطقة بالعربية ، ولكن ليست لدينا ثقافة عربية بالمعنى العميق الشامل الذي يقف جدارا صلبا في وجه الاجهزة الفكرية والثقافية للاستعمار الجديد .

لا يكفي ان اكتب في لبنان ، ويكتب غيري في دمشق ، وثالث في بغداد ، حتى نقول ان ثمة تفاعلا ثقافيا حقيقيا في الفكر العربي المعاصر .. بل ولا يكفي ان يقوم صراع بين أديب من القاهرة واخر من الدار البيضاء حول قصيدة من الشعر او قصة قصيرة او غير ذلك من ألوان الادب وقضايا الثقافة حتى اقول ان هناك تفاعلا صحيحا عميقا بين المثقفين والادباء والمفكرين العرب ، بل ان توحيد برامج الدراسة والتعليم في البلدان العربية لا يقوم بهذا الدور الخطير بل لا بد من تعديل هذه البرامج قبل توحيدها حتى تستطيع القيام بدورها التمهيدي اللازم في قيام ثقافة عربية واحدة . لقد تمكن الاستعمار القديم من ان يعزل اتجاهات الثقافة العربية عن بعضها البعض عزلا جادا ، وجاء الاستعمار الجديد فدعم هذه العزلة بوسائل شديدة الخبث والدهاء . فنحن نكاد لا نعرف شيئا عن « طريقنا الخاص » الذي سلكته الثقافة العربية في مسارها الطويل وسط زحام الثقافات الواحدة والمستوردة . ونحن الى الان نكاد لا نعرف شيئا عن « التقاليد العربية » في الثقافة التي رسختيوما بعد يوم على مر العصور والاجيال .. ونحن الى الان نكاد لا نعرف صورة موضوعية مفصلة لتطور كل ثقافة عربية على حدة حتى نتمثل عناصر الوحدة بين ثقافاتنا المختلفة فندعمها كما نتمثل عناصر الفرقة فنعمل على ازالتها ، ونتمثل الخصائص النوعية المستقلة التي تحفظ لكل ثقافة ذاتيتها المشروعة فنأخذ في تحديد معالمها .

ان الكاتب المصري قد تبهره قصة قادمة من بيروت او قصيدة من بغداد ، ولكن انفعاله يتوقف عند هذه الحدود الاستاتيكية ما لم يتعرف على « الارض الام » التي اثمرت هذا العمل الفني .. ومن ثم ينتقل من عتبات « الانبهار » الى « التفاعل » الحي العميق . ولكن هذا التفاعل لن يتم بصورة علمية صادقة الا اذا بدانا في صرامة وموضوعية باكتشاف ذاتنا الثقافية من جذورها وشعيراتها الدقيقة . واكتشاف الذات لن يتم الا بمرصد امين وتحليل شامل لتاريخنا الفكري والثقافي .. فحتى الان تخلو المكتبة العربية خلوا شبه تام من المراجع الامينة لتاريخنا الثقافي ، وبخاصة المراجع الخالصة من شوائب المناهج المعادية أصلا لفكرنا القومي ، مناهج بعض المستشرقين ، ومناهج بعض الجامعات الاجنبية .. ان اكتشاف الذات الثقافية للامة العربية هو السبيل الوحيد الى معرفة « طريقنا الخاص » الذي سلكته ثقافتنا القومية و « التقاليد العربية » التي حفرها الوجدان العربي والعقل العربي على صفحة وجودنا .. ان اكتشاف الذات الثقافية للامة العربية ايضا ، هو الخطوة الاولى للوحدة الثقافية العربية الحقيقية . والوحدة الثقافية العربية هي الحائط الصلب المنيع في وجه الاستعمار الثقافي الاميركي .. انها تصوغ الحد الادنى من « الوحدة الفكرية » القادرة على صياغة الارادة الحديدية للوطن العربي في جولته القادمة مع الامبريالية والاستعمار الجديد .

***

هذه فيما أعتقد هي النقاط الثلاث الرئيسية التي يتعين علينا التوقف البصير عندها على الصعيد العربي العام في رحلة نضالنا المرير القائم والقادم . بقيت المهام التفصيلية التي تتصل بالمواصفات المحلية لكل قطر عربي على حدة . فالبلدان العربية التي تخضع فيها الثقافة لاشراف وتوجيه الدولة تسهل مهمتها وتعسر في آن . والبلدان التي تستقل فيها مؤسسات الثقافة الوطنية استقلالا تاما تتخذ مسارا مختلفا بعض الشيء في توليها لمسؤولياتها . والبلدان التي تكاد تخلو من أية مؤسسات للفكر والثقافة ، تحتاج الى تخطيط جذري وشامل يغير من وضعها في نقطة الصفر .

اما الاقطار التي تخضع فيها ادوات التعبير لاشراف الدولة وتوجيهها ، واتخذ هنا من الجمهورية العربية المتحدة مثالا محددا ، فعليها ان تعيد النظر في بنائها الثقافي على ضوء العدوان في مقدماته وأحداثه ونتائجه القريبة والبعيدة . وهنا أكرر القول باني اعني العدوان الثقافي والعدوان المسلح على السواء . فلست أتصور ان وزارة الثقافة المصرية التي بادرت منذ حوالي عام بتغيير « قطبي » ان جاز التعبير عن اقصاء كبار الموظفين واحلال اخرين يتمتعون بثقة القوى الوطنية والتقدمية .. لست اتصور ان وزارة الثقافة باقتصارها على هذا التغيير القطبي تستطع ان ترتفع الى مستوى الاحداث . واذا كنت اضع في اعتباري الان ان دار الكاتب العربي قد تمكنت خلال المحنة ان تصدر عشرين كتابا في عشرة ايام فان هذا الانجاز العملي « لم يتم بواسطة الجهاز الرئيسي والرسمي للدار ، وانما قد تم بالمبادرات الفردية لمحمود امين العالم وسعد الدين وهبه ومجموعة قليلة العدد من موظفي المؤسسة الذين انتدبوا خصيصا للقيام بهذه المهمة العاجلة . اما موظفو الشركة الذين يتقاضون خمسين ألفا من الجنيهات شهريا ، فان معظمهم من الكادر الرئيسي للدار القومية للطباعة التي اصبحت كتبا تصف اسرائيل بانها واحة الاشتراكية وان اميركا جنة الديمقراطية على النحو الذي طالعنا به البيان الفاجع للدكتور ثروت عكاشة منذ شهور . ولقد عمدت الى ذكر الرقم المهول من الوف الجنيهات التي تدفع لموظفي هذه الشركة حتى نضع ايدينا على المعوقات الحقيقية التي تحول دون بنائنا الثقافي من جديد بناء سليما . فهذه الالوف من الجنيهات تعني اولا ان « نزيفا لا يبطىء السير » في احدى منشآتنا الثقافية الكبرى يهددها بالتوقف التام . ويعني ثانيا ان زحاما الى حد الاختناق ، يعرقل كل ما تبنيه الشركة ويهددها بالموت النهائي . وبين الالوف المؤلفة من اموال الشعب ، والزحام البشري للطاقات المعطلة ، لن يستطيع محمود العالم ولا سعد الدين وهبه ولا غيرهما من الكفاءات الفنية والفكرية ان تحول دون الانهيار .. اذ لا يكفي أن نصنع كفاءة ما في القمة ونترك البناء كله فسادا ترعى فيه حشرات الاهمال

والتقصير والذمم الخربة والانحرافات السياسية والاخطاء الفادحة . هذه الاخطاء التي سمحت ان يصدر في عنفوان المعركة مع اسرائيل كتاب يطالب بحرية الملاحة في خليج العقبة !! ان الحل العاجل لهذه المشكلة الخطيرة هي تحويل الاعداد الغفيرة التي تحمل مؤهلاتها الجامعية عن كلية الاداب الى وزارة التربية والتعليم ، والابقاء فحسب على الطاقات الفنية والفكرية القادرة على حمل العبء والمسؤولية . بذلك تتخلص الشركة من الاعباء المالية الضاغطة على ميزانيتها لدرجة الانفجار، وبذلك ايضا يحدث التجانس بين القمة والقاعدة وتحدث الوحدة بين الهدف والوسائل .

وما يقال عن دار الكاتب العربي يقال ايضا عن مؤسسة السينما ، كما يقال عن مؤسسة المسرح ، وادارة الثقافة الجماهيرية .. وان اختلفت الظروف من مؤسسة الى اخرى ، فالسينما مثلا ليست مشكلاتها الان انها لا تجد قصصا وطنية ، كما ان المسرح ليست مشكلته انه لا يجد نصوصا من ادب المقاومة . ان مؤسسة السينما وقد احتلت قيادتها كفاءات وطنية وتقدمية ، فان مشكلتها تكمن في الطرف الاخر الذي تتعامل معه من مؤلفين وممثلين ومخرجين .. كذلك الامر في مؤسسة المسرح .. فقد تسلمت قيادتها كفاءات لا تقل وطنية وتقدمية، ولكنها تتعامل مع نصوص تصل احيانا الى مستوى حافة الثورة المضادة من الناحية السياسية ، وتصل احيانا اخرى الى درجة شديدة الهبوط من الناحية الفنية . والثقافة الجماهيرية لا تبدأ من الجماهير ، وادارة المجلات تخصص احداها في خدمة افكار متخلفة واحيانا معادية ، وتجمد اخرى في أطر محنطة ، ان اعادة بنائنا الثقافي تستلزم حقا اعادة نظرة سريعة في كل قوانا وقواعدنا وبرامجنا . ووزارة الثقافة ـ كما يحق لنا ان نفترض ـ هي قلعة العمل الرسمي المنظم في النضال الفكري الذي تخوضه جماهيرنا اليوم من اجل تصفية اثار العدوان .

غير ان القلعة الثانية في معركة اليوم والتي ينبغي ان تتصدر مكان القيادة هي التنظيم السياسي ، ولا ينبغي على الاطلاق ان نكتفي بما يقوم به امانة الدعوة والفكر في الاتحاد الاشتراكي من اصدار النشرات الثورية .. فان الواجب العاجل والملح في المرحلة الراهنة أن يحدد التنظيم السياسي في وضوح تفصيلي دقيق الخيط السياسي للبلاد سواء في اطاره الاستراتيجي او في مرحلته التكتيكية .. ليس معنى ذلك انه لم يكن هناك خط سياسي محدد ، وانما اقصد ان العدوان الثلاثي الاخير سوف ينعكس بقوة النكسة على تفكير المواطنين وسلوكهم. واذا كانت الجماهير العظيمة قد برهنت مساء ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ على انها ما تزال صامدة في خطها السياسي الثوري ، فان هذا لا يعني على الاطلاق ان المشكلة قد انتهت .. فان العدو لا يصمت ليل نهار عن اشاعة البلبلة في صفوف شعبنا متسلحا في معركته الجديدة باكثر ادوات التشتيت الفكري تخفيا والتواء .. والمثل القريب في هذا الصدد هو الصورة المضللة التي روجتها دعايات الاستعمار عن موقف الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي عامة .. فلم يكن الهدف من وراء هذه الصورة الا اشاعة فقدان الامل في أصدقائنا ، وتوجيه الاعتماد كل الاعتماد على اعدائنا .. هذا المثل الصارخ يوضح الى اي حد يمكن للعدو ان يهز خطنا السياسي ويبعثر قوانا الايديولوجية ويشتت بناءنا الفكري .. لهذا السبب ، اقول : ان المهمة العاجلة امام التنظيم السياسي هي « تحديد الايديولوجية الثورية » لشعبنا في خط سياسي واضح ، وبرنامج تفصيلي دقيق للعمل ..

وهنا يأتي دور اجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون . فلقد امتد العدوان الثقافي الاستعماري على طول الجبهة الفكرية المصرية حتى تأثرت اجهزتنا الاعلامية في صميم تخطيطها تأثرا ضاريا .. فكم من افلام مكتب الاستعلامات الاميركي المهداة مجانا قد عرفت طريقها الى قنوات التلفزيون المصري ، وافئدة وعقول المصريين .. وكم من البرامج الاميركية التي اجتذبت في تقديم المواد المختلفة من مسلسلات بوليسية وجنسية اسهمت بدورها في تخريب الوجدان المصري والذوق المصري..

الى عديد من المخازي التي حرفت بعض برامج الاذاعة وبعض الصحف عن كونها اداة توعية في خدمة الشعب الى خزينة سخية للنهب العلني « والمشروع » وسرقة وعي المواطنين . ولعلها صحيفه محددة ، ومحطة اذاعية محددة هي التي اشاعت في صفوف الجماهير اثناء المعركة الاخيرة وبعدها ما بلبل افكار الكثيرين ..

اما دور النشر التابعة للقطاع الخاص في مصر والبلدان العربية الاخرى ، فان مسؤولياتها الرئيسية هي تصفية حساباتها نهائيا مع المؤسسات الاجنبية . ويلي ذلك ان تعمل بغير عزلة عن القيادات الثقافية المناضلة سواء منها من اعتلى مقعدا شرعيا او من بادر مبادرة فردية مخلصة بوازع من ضميره الحر . عليها كذلك ان تخطط لنفسها وفقا لاحتياجات المرحلة الخطيرة التي نعيشها ولا تترك نفسها لعشوائية الشعار التقليدي « اكبر ربح ممكن في اقصر وقت ممكن » .. ان تنسيق العمل بين القطاع الخاص والقطاع العام ، بين المنابر الرسمية والمنابر غير الرسمية من اهم الواجبات التي يجب ان تشارك فيها جميع الاطراف بانصبة عادلة ..

اما البلدان التي تكاد تخلو من مؤسسات ثقافية على الاطلاق ، وهذه تعرضت للعدوان الثقافي مثل غيرها ، بل واكثر لخلو ارضها من الدفاع الذاتي .. فانها مطالبة اليوم اكثر من أي وقت مضى بأن تبدا بناءها الثقافي الوطني المستقل ، ولا تعتمد بشكل مطلق على امدادات الدول الشقيقة بمجلاتها وافلامها . ان هذه الامدادات والافلام تستطيع ان تقدم خدمة عظمى لهذه البلدان اذا شاركت في « بناء » ثقافة وطنية لها .. فلا تعود جماهيرها مجرد قراء مستهلكين وكتاب مهاجرين .. بل تصبح ارضها قاعدة لبناء ثقافي راسخ يتفاعل مع بقية الابنية والثقافات، ولكنه ليتدعم ويقوى اساسه الداخلي والذاتي فوطن بلا بناء ثقافي هو اكثر الاوطان عرضة للسقوط ..

واذا امكننا ان نتحرر ونحرر ذواتنا المنفردة بخصائصها النوعية المستقلة ، فاننا سنحرر في نفس الوقت ذاتنا الكبرى الجامعة لاروع ما فينا من ايجابيات والموحدة لاعمق ما فينا من جوهريات .. وهذه الذات العربية هي التي ستقف كالطود في وجه أي عدوان جديد ، وهي نفسها التي ستطهر الارض العربية من ادران العدوان القريب والبعيد.. علينا فحسب ان ندرك في كل خطوة نخطوها أن العدوان قائم وان المعركة مستمرة ... وبالتالي فان « تصفية اثار العدوان » في كافة مجالات حياتنا ـ والثقافية من اهمها ـ هي اخطر المهام العاجلة في الوقت الراهن ..

القاهرة — غالي شكري

صدر حديثا :

الذين لا يكبرون

قصص

بقلم :

عايدة مطرجي إدريس

٢٠٠ ق.ل — منشورات دار الاداب